﴿ باب الانتقاد على المنار ﴾

« في بحث اختلاف الامة »

جاء في مجلة دين ومعيشت الاسلامية التي تصدر في البلاد الروسية ما ترجمته كنا ترجمنا في العدد ٢٧ من المجلة مقالة من مجلة المنار في حديث «اختلاف امتي رحمة» ووعدنا ببيان كون بعض الكلمات منها لا يطمئن به الخاطر فانجازاً للوعد نبين فكرنا في المسئلة : تقول المنار في آخر المقالة « ولكن لما جاء دور التقليد والتشيع والتعصب للمذاهب حلت النقمة ، وتفرقت الكلمة ، وذهب الريح والشوكة ، الى ان وصلنا الى هذه الدرجة من الضعف : ذهب ملكنا وصارت المملكة الكبيرة من ممالكنا تقع في قبضة الاجانب » يريد بقوله هذا اسناد السبب في ضعف الاسلام وكون أهله متفرقين شذر مذر الى انقسامهم الى مذهبي السنة والشيعة والمذاهب الاربعة المشهورة بسبب اختلاف الأئمة في الاحكام ، والى ان كل فرقة من اتباع الائمة الاربعة تقلد امامها . بذلك يسند العيب اليهم . هذا الفكر خطأ من المنار على ما نظن ، والسبب في ضعف العالم الاسلامي وصيرورته الى تلك الحال هو كون المسلمين مغلوبين أمام خصلتين من أقبح الخصال في الشريعة الاسلامية واتصافهم بهما . الاولى منهما الحمية الجاهلية أعني بها الاهتمام بالقومية والجنسية العربية والتركية والفارسية والهندية والتتارية والجركسية وأمثالها وتقديم كل قوم وملة حفظ قوميتهم وملتهم على حفظ الوحدة الاسلامية ، والقرآن يقول (٣ : ١٠٣ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون)

(وهنا فسر معنى الآية بالتتارية ثم قال) معلوم عند كل من يطلع على كتب التفاسير والتواريخ ان العرب قبل مجيء الاسلام كانت قبائل وطوائف كل واحدة منها عدوة للاخرى تعيش بالقتل والنهب « وبعبارة أخرى . كانوا يمضون الاوقات بالقتل والنهب » وبعد مجيء الاسلام تركوا العداوة فيما بينهم واتحدوا وتآخوا حتى اضطربت أطراف الارض بقوتهم وشوكتهم ، واذا أسلم اناس من اي ملة كانوا عدهم العرب اخوانا لهم ، وكذلك الذين اسلموا . بسبب هذا الاتحاد والتآخي لم يبق بين المسلمين نزعة للعصبية العربية ولا الرومية ولا الفارسية ولا غيرها من القوميات

والجنسيات وعاش المسلمون كلهم كما يعيش الاخوان مع أخوتهم .

الزمان لا يدوم على حال واحدة بل لا بد من التقلب من حال الى حال فالفرس الذين ذهبت الدولة من أيديهم بشوكة الاسلام كانوا مسلمين كسائر الناس ولكن البعض منهم لا سيما الذين لم تذهب لذة الامارة من أفواههم لم يهضموا في نفوسهم رياسة العرب الذين كانوا قبل الاسلام غير معدودين من البشر على اعتقادهم . فارادوا إلقاء الفتن بين المسلمين ومن وراثه حفظ قوميتهم ومنصب الرأسة في ملتهم بأي طريق كان . هكذا أخذا يعملون بالحمية الجاهلية .

للوصول الى تلك الامانى ألقوا الفتنة أولا بين العرب واخذوا يفضلون طائفة منهم ويستخفون بالآخرين . فبهذه الكيفية حملوا العرب أنفسهم على زرع بذور التفرقة بينهم الممنوعة بالآيات القرآنية المار ذكرها . والايهام بحسن أعمالهم ومشروعيتها اظهروها في روح الدين . دعوا الناس الى لعن الخلفاء الاولين وتكفيرهم لأنهم غصبوا الخلافة من علي كرم الله وجهه وكانت من حقه .

وهذه الاعمال منهم انما يريدون بها ستر حميتهم الجاهلية وابداءها في صورة حسنة كشيء مشروع في أعين الناس واصل الخلاف ليس هناك . هم في الحقيقة لا يرون كون الخلافة في علي كما لا يرون كونها في ابي بكر أو عمر ، بل تلك الاعمال منهم كما قلنا إلقاء للفتنة بين العرب والأمل باختطاف شيء من الرياسة لهم أثناء الفتن . بناء على ذلك ما كان ذلك الاختلاف بعد مجيء دور التشيع كما قال صاحب المنار بل كان موجودا قبل التشيع ولكن ظهر في الميدان صباغ التشيع لتقوية ذلك الاختلاف فقط .

أما تقليد الأئمة الاربعة فليس له أدنى مناسبة لذلك الاختلاف . والدليل على ذلك انه لم يوجد في وقت من الاوقات فتن تجر الى الحروب بسبب الاختلاف في الحنفية والشافعية أو المالكية والحنبلية . لا ترى حربا من الحروب الاسلامية إلا وتجد سببها الأول ترجيح القومية والملية ، على الوحدة الاسلامية ، وجعل محلها في الاهمية فوق محل الوحدة الاسلامية ، واذا قلنا بلسان العرب فهو الحمية الجاهلية ، والاثبات ذلك يكفي النظر في حال تركيا الآن : فتنة في اليمن ، وعصيان في الدروز ، وشق عصا الطاعة في الألبان ، كل تلك الاضطرابات ليس سببها الاختلاف في كون بعضهم مسلما اوغير مسلم ، أو في كون بعضهم شافعيا او حنفيا . بل السبب في الكل تلك القومية والملية .

كنا ذكرنا في أول المقالة خصلتين وقلنا انهما السبب في وصول العلم الاسلامي الى تلك الدرجة من الضعف . الخصلة الاولى قد بيناها ، وأما الثانية فهي حب الرياسة . كون تلك الخصلة من الاخلاق الذميمة في الشريعة الاسلامية مبين بالتفصيل في كتب الاخلاق فلا حاجة هنا الى البيان من تلك الجهة . كل قوم يريدون رياسة قومهم على الآخرين دون غيرهم ولا يتجنب في ذلك أي عمل يمكن مجيئه من يديه . وكذلك كل فرد من افراد القوم يريد أن يترأس في قومه دون غيره وهذه الخصلة شائعة جدا بين الجهلاء ولا سيما بين غير المتدينين في ديار القزاق والباشقرط ، فهم يجتهدون في نيل منصب بواص وأسترشينه « كلاهما منصب حاكم في درجة واحدة » حتى يجر الامر في بعض الاوقات الى الجناية كل ذلك أمام العيون . شيوع حب الرياسة بين افراد قوم لا شك في كونه يجلب اضرارا جسيمة على القوم وذلك حقيقة ثابتة بتجارب عديدة . نيل شخص غير منتظر الظهور في الميدان على منصب الرياسة وقت تخاصم اثنين فيها يصادف كثيراً جدا ولا يكون نصب المتخاصمين فيها الا إضاعة الوقت وصرف القوى . كذلك الدولة المتشكلة من الاقوام المكثرين إذا شاع في ابنائها حب الرياسة او تطاول كل قوم الى اتخاذ رئيس فيما بينهم فلا شك في سريان الضعف الى تلك الدولة من جميع أطرافها ، وتلك حقيقة ثابتة بتجارب عديدة ومعروف لكل من يطالع كتب التواريخ . ولا حاجة الى مراجعة كثير من الكتب ليعرف ، بل يكفي قليل من التفكر في اسباب دخول ممالك الهند المتشكلة من الأقوام العديدة مقدارهم ثلاثمائة مليون او زيادة في قبضة الانكليز وعددهم ثلاثون مليونا فقط .

الاقوام والقبائل في الهند كانوا لا يحملون رياسة الاقوام الآخرين عن جيرانهم وكانت الحروب الدموية لا تنقطع فيما بينهم في نصب رئيس من انفسهم دون الاقوام الاخرين . ففي ذلك الوقت جاءهم الانكليز وقالت لهم « اتركوا الحرب فيما بينكم ولا تقاتلوا من غير جدوى ، كلكم لا تصلحون للرياسة أبدا ، ولتجرب نحن أمر الرياسة عليكم » حتى أخذوا جميع الهند في ايديهم الصغيرة من غير مشقة او بمشقة قليلة ، وصاروا رؤساء عليها يحكمون . فالسبب في استسلام هؤلاء الاقوام الذين لا يعد عددهم ولا يحصى الى الانكليز وهم عدة ملايين ليس اختلافهم في الحنفية والشافعية

او النسبية او الشعبية . بل السبب من غير شك خصلة حب الرياسة المذمومة الممزوجة بالاختلاف في القومية والملية .

نظن ان صاحب المنار المحترم لاشك يعرف اكثر مناسبب دخول الانكليز مصر التي ولد فيها وتربى في قبضة الانكليز ، السبب في ذلك من غير شك ليس اختلافهم في الحنفية أو الشافعية لان المصريين كلهم شافعيو المذهب الا القليل اليسير ، بل السبب فيها أيضاً تلك الخصلة الذميمة خصلة حب الرياسة . وبعد ذلك لاحاجة بنا الى قراءة تواريخ تونس أو الاندلس . فنحن ما عرفنا كيف نؤول كلام رشيد رضا الفندي المحترم حيث يقول : السبب في دخول ممالك الاسلام في يد الاجانب التقليد والتشيع . والحال ان تلك الاسباب المار ذكرها في الميدان أمام كل الناس . لذلك قلنا ان هذا الفكر خطأ من المنار ، وما قلنا ذلك الا تأدبا والا ما يعوزنا الكلام لمقابلة تلك الكلمات من المنار ، لان المذاهب الاربعة قد توورثت «أو توقلت» عن الاولين الى الآخرين منذ عشر قرون أو اكثر قرناً بعد قرن ، وما قال أحد في قرن من القرون لاسيما العلماء بعدم لزوم تلك المذاهب بل عدوها عين الرحمة كما يقول الحديث اه

﴿ رد المنار ﴾

المسائل الاجتماعية والسياسية التي يبحث فيها عن أحوال الامم وطبائعها واسباب ترقيها وتدليها وحياتها وموتها هي أعلى وارقى وأخوص مسائل العلوم البشرية كلها ، ولا سيما اذا كان فهمها يتوقف على معرفة الباحث دين الامة التي يبحث عن أحوالها وفقه أصوله والاستقاء من ينبوعه الأول كالأمة الاسلامية

والمناظرة في هذه المسائل أصعب من المناظرة في سائر العلوم والفنون لأسباب منها أن كل أحد يظن انه يعرف حقها وباطلها وقل من يعرف ذلك ، ومنها ان تحرير محل النزاع عسير ولا سيما بالكتابة في لغتين او لغة واحدة يتفاوت المتناظران في فهمها فلهذا وذاك نرى أن مناظرة رصيفتنا الغراء (مجلة دين ومعيشت) لنا في هذه المسألة من المشكلات ، لان ما يترجمه لنا عنها أهل لسانها من التتار الذين يطلبون العلم عندنا يدلنا على أن محرريها لا يفهمون كلامنا حق الفهم ، بل نراها تخطىء فيه خطأ تسند الينا به مالم يخطر لنا على بال ، وقد كتبت هي أيضا في عبارة ترجمت لنا عنها ان الترجمة كانت خطأ . وههنا نقول انا جعلنا التقليد والتشيع هو سبب استيلاء الاجانب على بلاد الاسلام ، ويظهر انها فهمت أنه هو السبب المباشر لهذا السبب ، وقد اخطأت

في هذا الفهم كما اخطأت في جزمها بأننا ولدنا في مصر وتربينا في قبضة الانكليز وفي قولها ان مصر وقعت في قبضة الانكليز بسبب حب الرياسة . ومع هذا كله لا بد أن نكتب في هذه المسألة المهمة (اسباب اختلاف المسلمين وضعفهم واستيلاء الاجانب عليهم) ما ترجى فائدته في التفاهم بيننا وفي ايقاظ امتنا من نومها ، او تنبيهها من غفلتها عن نفسها ، فنقول

(١) ان لضعفنا الذي كان سبب استيلاء الاجانب علينا اسبابا كثيرة من أطال النظر في بعضها دون بعض يمكنه ان يطيل القول في جعله هو السبب دون غيره فيكون خطأ في الحصر فقط ، ويكون هذا الخطأ فاحشا اذا كان السبب المحصور فيه من الاسباب الفرعية غير الرئيسية ، كحب الرياسة الذي عدته رفيقتنا ركنا واصلا في ضعفنا وذهاب ملكنا ، وهو خلق عام في البشر فلو كان مقتضيا للضعف بذاته لما وجدت دولة قوية ، واننا نذكر من الأسباب التي يمكن للمرء ان يطيل في بيان كونها المضعفة للامة خلق الحسد الذي يفري محبي الرياسة بالبغي على من يسبقهم الى ما تصبو اليه نفوسهم او يرونها أحق به ممن نالته دونهم ، فالذي يظهر لنا ان عليا كرم الله وجهه كان يرى انه أحق الناس بامامة هذه الامة بعد نبيها (ص) ولكنه لم يبغ على من سبقه الى ذلك كما بغى عليه معاوية ، ولا خلاف في كون خروج معاوية على امير المؤمنين هو الصدمة الاولى التي أصابت الاسلام فكانت عة العلل لكل ما جاء بعدها من اسباب الضعف ، فلك ان تقول ان ذلك البغي علته الحسد لان من لا يحسد صاحب النعمة لا يبغي عليه ولذلك ورد في الحديث « واذا حسدت فلا تبغ » رواه ابن ابي الدنيا من حديث ابي هريرة بسند ضعيف ورسته عن الحسن مرسلا . والحسد كما يقع بين الافراد يقع بين الامم واهل الملل كما ورد في تفسير « ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » الآية انها نزلت في حسد اليهود للعرب ان بعث نبي آخر الزمان منهم ، وعلى هذا يمكنك ان تقول ان الحروب التي وقعت بين الشعوب الاسلامية كان سببها الحسد

(ومنها) ـ أي اسباب ضعف المسلمين عدم وضع نظام سياسي للخلافة وشكل الحكومة تكفله الأمة وهذا ما يرجحه أكثر الباحثين في السياسة اليوم

(ومنها) انهم لم يوفقوا الى تأليف جند دائم بنظام يكفل طاعته لأولي الامر كالنظام المعروف اليوم

(ومنها) وهو أعمها الجهل بعلم الاجتماع والسياسة والفنون التي عليها مدار القوة وهو الذي ازال ممالكنا في هذا القرن وما قبله لا التعصب الجنسي ولا حب الرياسة ،

وسبب هذا الجهل جمودنا على التقليد الذي اضعف عقولنا لعدم الاستقلال في استعمالها واضعف رابطتنا الدينية ووحدتنا العامة

ومنها غير ذلك من الاسباب الاجتماعية والسياسية والدينية التي بحثنا فيها من قبل وبحث غيرنا من الناس كثيراً، وناهيك بما جمع من تلك الابحاث في سجل جمعية أم القرى وغرضنا من هذه الامثلة إن نبين ان ما يناه من ضرر اختلاف الامة في دينها وتفرقها الى مذاهب وكونه من اسباب ضعفها لا ينافي ما جاء في مجلة (دين وسياسة) من ضرر العصبية الجنسية وحب الرياسة وكونهما من أسباب ضعف المسلمين ، ونحن لم نحصر جميع الحروب والفتن بين المسلمين في الاختلاف والتقليد كما حصرها أصحاب تلك المجلة في التعصب للجنسية والقومية (وهم يعبرون عن ذلك بالملية كالترك والفرس فقد استعملوا الملة بغير معناها الشرعي واللغوي) وفي حب الرياسة .

(٢) أخطأت اخذا مجلة دين وسياسة فيما ذكرته من الشواهد التي استدلت بها على ما ذهبت اليه . أخطأت في قولها ان الخلاف الضار والتقليد حدث في الامة قبل التشيع والصواب ان التشيع حدث في القرن الأول ، وأخطأت في قولها ان العصبية الجنسية هي التي كانت سبب الحروب بين المسلمين في القرون الأولى وأنه لم يكن للتشيع والمذاهب أدنى تأثير فيها ، والصواب ان سم العصبية الجنسية والقومية لم يسر في المسلمين في تلك القرون سريانا قويا يؤثر فيها . وقد كنا بينا ما فعله زنادقة الفرس بسائق هذه العصبية من الافساد في الاسلام ومحاولة رد أهله عنه وازلة ملكه ، وكونهم ألبسوا ذلك لباس الدين وبثوه في شيعة علي وابنائه آل بيت الرسول عليهم السلام ، التي تفضلهم على بني أمية الباغين الجائرين ، وكانت هذه الشيعة مؤلفة من خيار المؤمنين ، فسرى بسبب ذلك الى عامتها الغافلة ، بعض دسائس أولئك الزنادقة ، وما أحدثوا من تعاليم الباطنية الكفرية ، ولكن المسلمين الصادقين من العرب والعجم لم يفطنوا لدسيستهم ، ونظمت اخوة الاسلام جامعة بينهم ، لا يستقل عربي امارة عجمي ولا مشيخته ، ولا عجمي إمارة عربي ولا مشيخته ، وكانوا كلهم يتعاونون على نقد ما وضعه الزنادقة من الأحاديث وما بثوه من البدع وروجوه بزعمهم انه مذهب شيعة آل البيت الطاهرين وقد كانت الحروب والفتن التي اثارها الباطنية من القرامطة والاسماعيلية وغيرهم تشب نيرانها باختلاف التعاليم الدينية لا باختلاف الجنسية والقومية . والعبيديون ما استولوا على مصر واسسوا ملكهم باسم الجنسية بل باسم المذهب ، وما ازال ملكهم صلاح الدين الأيوبي بالعصبية الجنسية

والقومية بل بعصبية المذهب ، ولم يكن احد من العرب يكره حكم نور الدين التركي ، ولا صلاح الدين الكردي ، ولا يخطر في باله أنه من غير قومه ، بل لا يزال العرب يعدونهما خير خلف للخلفاء الراشدين

نعم ان فتنة العصبية الجنسية الجاهلية قد أضرت بالدولة العثمانية كما بيناذلك مرارا بالغد المر ومع هذا نقول على علم وخبر إن عرب اليمن وحوران لم يقاتلوا الدولة ولم يحصروها لاختلاف الجنس والعنصر ، فاما أهل اليمن فهم يدافعون الدولة ويحاربونها عند ما تحاربهم لاختلاف المذهب ولظلم رجال الدولة وافسادهم هنالك كما اعترف كتاب الترك بذلك في جرائدهم في اثناء الفتنة الاخيرة في هذا العام ، ولم يكن اليمانيون هم البادئين في الحرب الاخيرة بل كان الامام يطلب الاتفاق مع الدولة . ومذهب الزيدية الذين جل تلك الحروب معهم وجوب الخروج على اهل الجور وقتالهم ، واما دروز حوران فهم على كونهم من الباطنية لم يعصوا الدولة لانها تركية وهم عرب ، والقتال بينهم وبين العرب الخلص المجاورين لهم مستمر ، وانما تحرشت بهم الحكومة لتستريح من شقاوتهم وكثرة اعتدائهم على من حولهم ، ولم يكن تحرشها بهم من حسن الادارة في شيء اذ كان يمكن إخضاعهم بحسن السياسة كما يعرف الخبيرون من رجال الدولة ، وكذلك اخطأت في تلك الفعلة الشنعاء في السكرك .

إنني أرى تأثير الاسلام في ازالة عصبية العرب القومية لا يزال أقوى من تأثيره في ازالة عصبية غيرهم من المسلمين ، فاهل جزيرة العرب الذين يروا من الدولة خيرا قط وأنما رأوا منها الغارات الشعواء ، وسفك الدماء ، يودون لو يفدونها بأرواحهم ويتمنون لو توفق الى ادارة بلادهم باقامة حكم الشرع فيها ، مع كونهم لم يتعودوا الخضوع لسلطة غريب عنهم ، فهم من أعرق أهل الارض في الاستقلال ، ولو كان أهل اليمن يكرهون سلطة الترك لاجل العصبية الجنسية لخرجوا عليهم في هذا الوقت الذي لا تستطيع الدولة أن ترسل فيه اليهم جندا ، ولكنهم في هذا الوقت عرضوا أنفسهم واستعدوا لبذل أرواحهم في الحرب مع الدولة ونعم ما فعلوا ، كما يبذل عرب طرابلس الغرب ارواحهم ليظلوا تابعين لهذه الدولة التي لم يروا منها خيرا قط ، وما ذلك الا لأن رابطة الاسلام فيهم اقوى من رابطة الجنسية والقومية .

نعم ان الارنؤط يطلبون ما يطلبون باسم العصبية القومية وما ألجأهم الى ذلك الا سوء سياسة المتفرنجين في الاستانة الذين يحاولون تتريكهم بالقوة القاهرة ، ولو جروا معهم على سنة الاسلام لما كان للعصبية الجنسية أثر يذكر فيهم

(٣) أخطأت وصفتنا ايضا فيما اشارت اليه من سبب احتلال الانكليز لمصر كما اخطأت في نوطها عن صاحب المنار انه ولد في مصر وتربى فيها ، كما قلنا في أول هذا الرد ، ونزيد هنا ان زمن وجودنا بمصر هو اربع عشرة سنة كعمر المنار ويزيد أشهرا . وانه لم تكن العصبية الجنسية ولا حب الرياسة سبب دخول الانكليز في مصر وانما سببه سوء ادارة اسماعيل باشا وضعف توفيق باشا ، فالاول اغرق البلاد بالديون وجعل الكاترة وفرنسة رقيبتين على حكومته ، حتى أدى ذلك الى خلعه ، والثاني أحدث حركة عسكرية ليتخلص بها من وزارة رياض باشا ولم يستطع تسكينها فاستعان بالانكليز عليها ، وليس هذا محل شرح ذلك ، افرأيتم أيها الرصفاء كيف تبنون احكامكم على اسس من الرمل لا تمسك بناء ولا تحقق رجاء

وبعد هذه الاشارة الوجيزة والتذكرة المختصرة ، أقول انني صرحت في الكلام على ذلك الحديث بعد بيان انه لا يصح بأن أهون الاختلاف الامة اختلاف السلف في فهم أحكام الدين ومنهم علماء الامصار كائمة الفقه المشهورين أبي حنيفة ومالك والشافعي واحمد وغيرهم (رحمهم الله تعالى ورضي عنهم) وقلت ان مثل هذا الاختلاف طبيعي لا ضرر فيه ، ثم بينت ان ضرر الاختلاف في الدين قد نجم في دور التشيع والتعصب وكان من اسباب ضعف الأمة الذي فرق شملها حتى صارت الى ما نحن فيه ، ولم اقل ان الضعف وزوال الممالك لا سبب له إلا الاختلاف والتشيع ، على ان من يقول هذا لا يعجزه ان يستدل عليه ، وبيان ذلك حتى يصحب القراء الظاهر فيه يطول ، وليس هذا محل التطويل ، وانما هو محل التذكير ، فنذكر اخواننا الفضلاء أصحاب تلك المجلة وغيرهم من القراء ببعض المسائل في ذلك فنقول

ان كتاب الله تعالى قد بين في آيات كثيرة ضرر الاختلاف والتفرق ولا سيما في الدين وتوعد على هذا بمثل ما يتوعد على الكفر حتى صرح بان الذين يكونون شيعا وفرقا في الدين هم برآء من النبي (ص) وقد بينا هذا مرارا في التفسير وغير التفسير تارات بالاطناب وتارات بالايجاز

ان النبي صلى الله عليه وسلم بين مثل ذلك في قوله وعمله حتى لم يكن يغضب لشيء كما يغضب اذا رأى الاختلاف بين أصحابه قد أفضى او كاد يفضي الى التفرق واتصار كل طائفة لرأي والنقول في هذا كثيرة وفيما يقابله من الامر بالاتفاق والاعتصام كثيرة جدا

ان السلف الصالحين كانوا يحرون هذا الهدي الالهي النبوي ويحذرون من

اقتضاه الخلاف في الفهم وهو طبيعي لا مندوحة عنه الى التفرق والتشيع المحظور حتى ان الشافعي ترك القنوت في الصبح عند ما صلى في مسجد أبي حنيفة مع أصحابه ببغداد ورأى ان ترك سنة غير مجمع عليها مرة (لو اكثر) أهون من مخالفة جماعة من المسلمين اداهم اجتهادهم الى عدم سنيتها. وقد خفي هذا على من علل ذلك بأنه ترك القنوت تأدبا مع أبي حنيفة وهو في قبره اذ لا يعقل ان يترك مثل الشافعي سنة الرسول تأدبا مع احد من الناس ، وخفي ايضا على من زعم ان اجتهاده في المسألة تغير في ذلك الوقت ثم عاد، وهذا بعيد أيضا كبعد الأرض عن السماء ، واما ما قلناه فهو معهود من السلف، يترك الواحد اجتهاده والعمل بغيره في مثل هذه المندوبات ليوافق الجماعة الذين خالف اجتهادهم اجتهاده فيه اذا كان عمله به يظهر به الاختلاف والتفرق كالقنوت وتكبيرات صلاة العيد ، والا عمل كل باجتهاد نفسه وعذر الآخر في اجتهاده . ومن هذا الباب جواب الامام احمد لمن سأله أيصلي وراء من لم يتوضأ من خروج الدم وكان يرى الوضوء منه قيل له فان كان الامام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ هل تصلي خلفه ؟ فقال كيف لا أصلي خلف الامام مالك وسعيد بن المسيب . وكان مالك قد افتى هارون الرشيد بأنه لا وضوء عليه اذا هو احتجم فصلى يوما بعد الحجامة وصلى خلفه ابو يوسف ولم يعد الصلاة. وقال بعض الفقهاء ان من علم أن الامام مخالف له في اجتهاده أو تقليده في مثل ذلك لا يصلي خلفه ، وجعلوا المسألة خلافية وصوروها بقولهم هل العبرة برأي الامام ام برأي المأموم ؟ وفرقوا بين المؤمنين في ذلك وغيره حتى انهم صاروا يعقدون في بيت الله تعالى بمكة وفي سائر المساجد عدة جماعات في وقت واحد ، ولا يرون في هذا بأسا وان خالفوا السنة وعمل السلف لأجل تمتع العامة الصلوات بالرواتب الموقوفة عليهم

يرى اصحاب مجلة (دين ومعيشت) ان هذا الخلاف والتفرق لا ضرر فيه ، وانه لم يترتب عليه حرب ولا عداء ، ولم ينكره أحد من العلماء في كل هذه الاعصار ، وكتب التاريخ ومصنفات اشهر علماء الاسلام الاعلام ترد رأيهم هذا وتنقضه عروة عروة

لا يماري أحد فيما جرى بين المسلمين من الفتن والحروب باختلاف أهل السنة مع الخوارج والشيعة ومنها فتنة ابن الملقمي المشهورة ، وآخرها ما جرى بين العثمانيين مع شيعة إيران الامامية ومع شيعة اليمن الزيدية ، فلا نخوض في هذا بل نشير الآن الى بعض الفتن التي شوهت التاريخ باختلاف أهل المذاهب الفقهية الحنفية والشافعية

والحنبلية ، ومن أخذ مثل تاريخ الكامل لابن الاثير وتصفح فهرسه يستخرج من كل مجلد عدة فتن ولا سيما في بغداد

أثبت لنا التاريخ ان إغارة التتار على المسلمين قد كانت أول مزلزل لقوتهم وخامد لشوكتهم ، وانه كان للعداوة بين الشافعية والحنفية يد في إغراء التتار الوثنيين بالمسلمين وتمكينهم بهم ، وكانوا قد كادوا يعودون أدراجهم ، بعد أن خضعتهم الاعاجم واخذ البلاد منهم ، وموت ملكهم وقائدهم جنكيزخان ، وعجزهم عن فتح اصبهان الاسلامية . قال ابن ابي الحديد في (ص ٣٢٩) من الجزء الثاني من شرحه على نهج البلاغة : (المطبوع بمصر) ما نصه

« ورجع جنكيزخان الى ما وراء النهر وتوفي هناك ، وقام بعده ابنه قاآن مقامه ، وثبت جرماغون في مكانه بآذربيجان ، ولم يبق لهم الا أصبهان ، فانهم نزلوا عليها مرارا في سنة ٦٢٧ وحاربهم أهلها وقتل من الفريقين مقتلة عظيمة ولم ينالوا منها غرضا ، حتى اختلف أهل أصبهان في سنة ٦٣٣ وهم طائفتان حنفية وشافعية وبينهم حروب متصلة ، وعصبية ظاهرة ، فخرج قوم من أصحاب الشافعي الى من يجاورهم ويناخهم من ممالك التتار فقالوا لهم اقصدوا البلد حتى نسلمه اليكم . فتقل ذلك الى قاآن بن جنكيزخان بعد وفاة أبيه والملك يومئذ منوط بتدبيره ، فأرسل جيوشا من المدينة المستجدة التي بنوها وسموها « قراحرقم » فعبرت جيحون مغربة والتقم اليها قوم ممن ارسله جرماغون على هيأة المددلهم ، فنزلوا أصفهان في سنة ٦٣٣ المذكورة وحصروها . فاختلف سيفا الشافعية والحنفية في المدينة حتى قتل كثير منهم ، وفتحت ابواب المدينة فتحها الشافعية على عهد بينهم وبين التتار أن يقتلوا الحنفية ، ويعفو عن الشافعية ، فلما دخلوا البلد بدأوا بالشافعية فقتلوهم قتلا ذريعا ولم يفوا مع العهد الذي عهدوه لهم ، ثم قتلوا الحنفية ، ثم قتلوا سائر الناس ، وسبوا النساء وشقوا بطون الحبالى ، ونهبوا الاموال وصادروا الاغنياء ، ثم اضرموا النار فأحرقوا أصبهان حتى صارت تلولا من رماد » اه

ومن نتائج الخلاف بين الشافعية والحنفية ما ذكره المؤرخون في خبر انتقال ابن السمعاني من مذهب ابي حنيفة الى مذهب الشافعي وما جرى من التعصبات والمطاعن والفتن حتى ان ابن السبكي لم يمتنع من نقل الرؤى التي تقدمت ذلك ومنها انه لما اختلج في ذهنه تقليد الشافعي وتردد فيه رأى رب العزة جل جلاله في النوم فقال له « عد الينا أبا المظفر » قال فانتبهت وعلمت انه يريد مذهب الشافعي فرجعت اليه !!

فهذا العالم العلامة من المقلدين الذي قالوا عنه انه شافعي وقته قد فهم من الرؤيا التي رآها ان الله تعالى يريد بقوله له «عد الينا» الرجوع عن مذهب ابي حنيفة الذي مكث ثلاثين سنة يناظر علماء الشافعية في ترجيحه على مذهبهم ويقلد مذهب الشافعي الذي كان يجتهد تلك المدة كلها في ابطال ماخالف الحنفية منه . ويؤخذ من هذا الفهم انه كان يرى ان مذهب ابي حنيفة بعيداً عن الله وعن مرضاته كأنه ليس من دينه في شيء ، اي كان هذا منه وهو مقلد له ، ولماذا لم يفهم من العودة الى الله العودة الى أصل دينه من كتابه المنزل ، وسنة نبيه المرسل ، من غير شوب لهما بظنون الحنفية والشافعية جميعا ؟

المراد من الاشارة الى هذه الواقعة من وقائع تعصبات المذاهب وتفرقها بين المسلمين هو بيان ان كبار المقلدين كانوا يعبرون عن المخالفين لهم في المذهب بمثل ما يعبرون به عن المخالفين لهم في اصل الدين وان لم يصرحوا بتكفيرهم بلفظ الكفر والردة ، ومن ذلك قول بعض الحنفية انه يجوز للحنفي ان يتزوج البنت الشافعية قياسا على الذمية !! بل غلا بعضهم وصرح بالتكفير . ولا يزال هذا التعصب شديدا في بعض بلاد الاعاجم كالهند وغيرها على ضعف المذاهب كلها ، ولا تخلو البلاد العربية من نزغات في ذلك ، فقد قال أحد متفقهة الحنفية في طرابلس الشام في درسه مرة انه لا يصلي خلف امام شافعي لان الشافعية يشكون في إيمانهم (أي ان علماءهم اجازوا ان يقول المؤمن انا مؤمن ان شاء الله) فذهب بعض الشافعية الى المفتي وقال له اقسم المساجد بيننا وبين الحنفية ، فانكر المفتي ذلك الحنفي وأطفأ الفتنة . ولعل مصر الآن اشد بلاد الاسلام تساهلا وأقلها تعصبا في ذلك

تقول مجلة (دين ومعيشت) إن العلماء قد أقروا خلاف المذاهب الموروثة وعدوه رحمة كما ورد في الحديث فلم ينكره أحد ، وهذا غير صحيح فان العلماء النابغين المستقلين قد أنكروا ذلك في كل عصر وحثوا المسلمين على هداية الكتاب والسنة . وترى في هذا الجزء كلاما لفقيه شافعي مستقل في ذلك ، ولكن ضاع أكثر أقوالهم في الجماهير التي غلب عليها الجهل ، والمشتغلين بمدارسة هذه المذاهب لأجل الأوقاف التي حبست على المتفقهين بها والمناصب التي يخصهم بها الملوك والامراء ، فلولا الامراء والسلاطين والاوقاف التي وقفوها على المشتغلين بهذه المذاهب لاندرست كما اندرس غيرها ، بل لما وجدت بهذه الصفة ، وإنما كان يحفظ منها مثل ما حفظ من مذهب الثوري والاوزاعي وأضرابهم وهو اقوال الائمة ودلائلهم تذكر في شروح الحديث وكتب الفقه التي لا تحيز فيها الى

ثقة، ولا افتراق فيها بين جماعة المسلمين ، وهؤلاء المقلدون للمذاهب المتعصبون لها لاجل ما ذكر لا يعدون من العلماء حقيقة وان عدوا منهم عرفا ، وكان السلف يعبرون عن المقلد بالجاهل مهما اشتغل بالعلم ، وعن المجتهد بالعالم، وترى مثل هذا في الهداية وشروحها من كتب الحنفية في أحكام القضاء والافتاء ، على ان مقلدي كل مذهب انكروا مسائل الخلاف في غير مذهبهم فكان لنا من مجموع أقوالهم انكار جميع ما اختلف فيه ، ولا يمكن الترجيح بينهم الا بالرجوع الى الاصل الذي امرنا الله به في قوله « فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول » كما كان يفعل السلف الصالح رضي الله عنهم

كان المسلمون في خير القرون أمة واحدة ، وكان العلماء فيهم أدلاء وقلة لدين الله لا يدون ظن احد منهم (اجتهاده) في المسائل ليتخذ دينا يدعى اليه ويلتزم دون غيره ، وكان سبب انتشار هذه المذاهب تعيين الحكام من أهلها ، ثم انتهاء الملوك والامراء اليها ، فلو بقيت دولة العبيديين في مصر لصار جميع اهلها او اكثرهم شيعة ثم باطنية ، ولولا تعقب السلطان صلاح الدين لمذهبهم وتعمد محوه واستبداله بمذهب الشافعية وكذا المالكية به لما صار اكثر أهل مصر شافعية والكثير منهم مالكية كما بين ذلك المقريزي في خططه ، ولولا استيلاء العثمانيين واسرة محمد علي باشا على مصر وهم حنفية وجعلهم القضاة والحكام من أهل مذهبهم لما كثر علماء الحنفية في الازهر وانتشر مذهبهم في هذه البلاد . فالملوك الدنيا ومناصب الدنيا ومتاع الدنيا وزينة الدنيا وجاه الدنيا هي التي قررت هذا الخلاف بين المسلمين وحفظته ونصرته كما بين ذلك الامام الغزالي في كتاب العلم من الربع الاول من احياء علوم الدين ، وحسبك ان تراجع منه الباب الرابع الذي عقده لبيان « اقبال الخلق على علم الخلاف » فانه صرح فيه بنحو ما ذكرناه آنفا وبينه كما بينه غيره من العلماء والمؤرخين

وما زال علماء الدنيا - او علماء السوء كما يقول الغزالي - يؤيدون الحكام الظالمين في كل حين لاجل المال والجاه ، بل يؤيدون غير المسلمين أيضا كما كان بعض علماء مصر يقنعون المسلمين بوجوب الخضوع لفرنسة عند ما استولت على مصر جيش بونابرت، يفعلون ذلك باسم الاسلام ، فلا عجب اذا أيدوا كل حكومة منسوبة الى الاسلام مهما كانت جائرة ومهما كان مذهبها في الاصول او الفروع ، وقد وجد من أصحاب العمائم في مصر من انشأ في هذا العصر مسجدا في مصر باسم ملك ايطالية الكاثوليكي ووقفه على روحه ليكون له ثواب الصلاة فيه . وهذا المعمم الذي يعد من طائفة العلماء وشيوخ المتصوفة هو ابن الشيخ عليش الذي كان يعد اشهر علماء الازهر واشدهم

تشددا في الدين ، وكان من هذا الخزي ان اسم الشيخ عليش وشهرته ما استعانت به إيطالية على اخذ مملكة طرابلس الغرب وبرقة من الدولة الاسلامية ، كل ذلك لاجل عرض قليل وحطام حقير يستفيده من فضلات وكالة إيطالية السياسية بمصر ،

فهل يستغرب مع هذا ما قاله الغزالي والمقريزي وغيرهما عن المتقدمين في سبب التعصب للمذاهب ونصرها ، وهو انه طلب المال والجاه والتمتع بالاوقاف والمناصب ؟ أم يستغرب ما كان يكتبه الشيوخ الدجالون من عبيد الدنيا في مدح السلطان عبد الحميد مدمر الدولة العثمانية ومذل الامة الاسلامية ، من المدائح فيه ، وتكفير المخالفين له ، كقول الشيخ يوسف النبهاني في ذيل قصيدة له في مدحه ومدح كاتبه عزت باشا العابد انه يتقرب الى الله بمحبته وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه قال « وذلك لازم لكل مسلم وان عكسه من اكبر الكبائر واعظم الذنوب الموجبات لسخط الحق سبحانه بل ربما ادى ذلك الى الكفر » ثم ذكر ان الذين عادوه يعني احرار العثمانيين طلاب اصلاح الدولة « قد عصوا الله ورسوله واسخطوا جميع المؤمنين واستحقوا لعنة الله وغضبه في كل حين » وذكر في تلك القصيدة ان عبد الحميد جدد الدين والدولة وانه لا يوجد له مثل في الارض ولكن عسى ان يوجد له مثل فوق السموات . والقصيدة مطبوعة ، فهل مكن المستبدين من اهلاك المسلمين الا امثال هؤلاء المقلدين الجاهلين الطامعين في الاموال والمناصب ، بعنوان هذه المذاهب ، واذا كان الامر كذلك فاي رحمة اعتادها المسلمون من اختلاف اولئك المقلدين المتعصبين غير تلك الاموال والمناصب التي تمتع بها اولئك المفرقون بين المسلمين باسم المذاهب ، وائمة المذاهب برآء من ذلك ومن الرضى به

وجملة القول ان حديث « اختلاف امتي رحمة » لا اصل له كما صرح بذلك غير واحد من ائمة الحديث ، وذكر الخطابي له في عرض كلامه لا يثبت ان له اصلا هذه ولكن قد يشعر بذلك كما قال السخاوي ، ووجود اصل له لا يستلزم صحته ولا حسنه وهو لا يعرف له سند ، ومعناه كلفظه لا يصح ولا يثبت بل الثابت في كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ص) وسيرة السلف وفي الواقع ونفس الامر ان الاختلاف قد أدى الى التفرق والعداوة والبغضاء فكان من اسباب ضعف المسلمين وتمزقهم كل ممزق ، فهم التعصب للمذاهب قد اضعفوا وحدتهم واضاعوا استقلال عقولهم فلما ارتقت الامم باستقلال العقل في فنون العلم وما يترتب عليه من الاعمال علوهم وسلبوا ملكهم

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لتسون صفوفكم او ليخالفن الله بين وجوهكم (متفق عليه في الصحاح والسنن كلها) وفي رواية ابي داود « او ليخالفن

الله بين قلوبكم » وفسرت الوجوه في رواية الجمهور بالقلوب كما فسر به « وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض » قال النووي في شرح الحديث معناه يوقع بينكم العداوة والبغضاء ، وقال القرطبي معناه تفترقون فيأخذ كل واحد وجها غير الذي يأخذه صاحبه . ولا يفقه هذه الحكمة النبوية الا العليم بصفات الانفس البشرية واخلاقها ونظام الاجتماع الانساني . ومن سنن الله في ذلك ان ما يتفق فيه الافراد من الاعمال الظاهرة المشتركة بينهم يكون سببا لائتلافهم واتفاقهم ووحدتهم ، والضد بالضد ، ولذلك تتحرى الامم المرتقية في العلم والنظام ان تربي افرادها على نظام واحد في الاعمال الظاهرة وان تنشر عاداتها في الامم الاخرى لتجذب بها قلوبها اليها وقد اوضحنا هذا المعنى في مقالاتنا (المسلمون والقبط) فليرجع اليها

يا سبحان الله » ان رسولنا (ص) لم يسمح لنا ان نختلف افرادنا في صف الصلاة فيتقدم بعضهم على بعض واقسم على ان ذلك يكون سبب اختلاف قلوبنا ووقوع التفرق بيننا ، ثم نحن نجيز لانفسنا ان نقيم في المسجد عدة جماعات في وقت واحد لاختلاف المذاهب ونعد هذا رحمة بنا ونحن نشعر في انفسنا بأن ذلك يبعد بعضنا عن بعض ولا نشك في ذلك ، ونجيز لها غير ذلك من انواع الخلاف في هيآت الصلاة وغير الصلاة ، والتاريخ دون لنا ما ترتب على ذلك من الفتن والفساد

لو شئت ان أنقل بعض ما أعلم من وقائع الفتن والعداوة بين اهل المذاهب لجئت بالفضائح ، وكل ذلك قد جرى باسم الانتصار لائمة العلم والفقه وما هو الا انتصار للاهواء كما قال الغزالي لا شيء منه يوافق اصول اولئك الائمة ولا سيرتهم الشريفة ، بل يقل ان يوجد من مدعي اتباعهم من يعرف حقيقة ما كانوا عليه ، وانما يتبع أهل كل عصر علماء عصرهم الذين اشرنا الى حالتهم لتفقههم بهم وان كانوا جاهلين حتى بالمذاهب التي جعلوها حرفتهم وسبب رزقهم ، وهؤلاء القادة الجاهلون هم الذين منعوا المسلمين من أسباب الترقي المالي والعلمي والصناعي فضاعت بلادهم .

منشأ عصبية التقليد الثقة واكبر مفاسد أن تكونت بهذه الثقة مذاهب المبتدعة وطرقهم بل مذاهب الكفر والزندقة باسم الاسلام كمذاهب الباطنية ، فالبكداشية يعدون الآن في بلاد الترك والأرنؤط بالملايين ويقولون انهم من المسلمين ، وما كان الا خذون بتعليم (الفضل الحروفي) من المسلمين في شيء ، افرأيت لو لم توجد بدعة التشيع أو التعصب من كل طائفة لتعليم معين هل كان وجد هذا الضلال ، ارأيت لو ان المسلمين يعملون في كل عصر وكل مكان بقوله تعالى « فان تنازعتم شيء فردوه الى الله والرسول ان

كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير واحسن تأويلا » هل كان وجد هذا التفرق والتمزق والانحلال ؟؟ لا لا وانما وجد بالتقليد لان كل طائفة وثقت برؤسائها فاتبعتهم بغير دليل . وسنزيد هذا بيانا في وقت آخر ان شاء الله تعالى

(باب الاخبار التاريخية والآراء)

محاربة "ايطاليا" لطرابلس الغرب

تعني بطرابلس الغرب الاقليم الواقع بين القطر المصري والقطر التونسي ومنه برقه المعبر عنها في عرف الدولة بمتصرفية بنغازي وهو مملكة كبيرة مساحتها أربعمائة ألف ميل او تزيد ، ولكنها لسوء الادارة والظلم والفوضى قد غلب عليها الخراب وقل فيها السكان ، فأهلها يقدرون بمليون ونصف يدخل في ذلك بدوهم مع حضرهم ، وموقع هذه المملكة البحري والتجاري عظيم وهي قابلة للعمران والترقي ، وقد كنا نسمع منذ وعينا ان دولة ايطالية طامعة فيها وكانت الحكومة الحميدية على سياستها قد عنيت بتعليم أهل طرابلس النظام العسكري فأنشأت فيها فرقا من الفرسان « الألايات الحميدية » كما فعلت في بلاد الاكراد ، فقالوا يومئذ ان للسلطان عبد الحميد في هذه الدولة حسنتين : سكة الحديد الحجازية والألايات الحميدية . وقد اقترحنا على الدولة العلية منذ اكثر من عشر سنين ان تسهم التعليم العسكري في طرابلس الغرب وفي سائر البلاد العثمانية وتجعل فيها مستودعات للسلاح ليكون الاهالي مستعدين للدفاع عن انفسهم اذا فاجأهم الطامعون وتعذر على الدولة ان تمدهم بالجند الكافي ، بل قلنا إن الطامعين اذا علموا أن أهل البلاد مستعدون للحرب والكفاح يحجمون عن مهاجمة البلاد لان أوربة — ولا خوف الا منها — تؤثر الفتح السلمي الذي لا تخسر فيه كثيراً من ابنائها واموالها على الفتح الحربي

كانت نصائحنا كنصائح غيرنا تحمل على معاداة السلطان ولا يترتب عليها الا إيذاء الناصح في نفسه او أهله وماله ، ثم زالت الحكومة الحميدية ، وحل محلها الحكومة الجديدة ، التي سيطرت عليها جمعية الاتحاد والترقي بقوة الجيش وديوان الحرب العرفي فكان حظ طرابلس الغرب في عهد هذه الحكومة شراً من حظها في زمن عبد الحميد ، فقد اضعفت وزارة حقي باشا حاميتها ، ومهدت السبيل لتعجيل ايطالية باحتلالها كما يعلم من التقرير الرسمي الذي قدمه بعض المبعوثين الى المجلس في طلب محاكمة حقي باشا